
المنظومة
ALMANDUMAH

السياسة البربرية والثقافة القومية

عمر ابن عبد الجليل

كانت مناقشة السياسة البربرية، وتفنيد مزاعم أباطرتها، والرد على ممارسات السلطة الرسمية، في إطارها، من بين المحاور الرئيسية، لفكر وعمل قيادة الحركة الوطنية، في سنوات الثلاثين من هذا القرن.

ويشكل ما حررته أقلام الوطنيين، كما مهما، يقف في مواجهة، اجتهادات، وافتراءات، دعاة التفرقة في المغرب، وما كتبوه، من «أدبيات السياسة البربرية».

ومن بين اجتهادات الوطنيين، نعيد نشر مقال للمرحوم عمر ابن عبد الجليل، نشره سنة 1937، في أحد أعداد جريدة «الأطلس».

ليس خطر السياسة البربرية في النظام العدلي المبتدع بدعوى الاحتفاظ للجماعات بحقوقها واختصاصاتها، وليس هو في احترام عوائد وتقاليد القبائل الجبلية، ولكنه في الاتجاه الثقافي الذي يفرض مقاومة الثقافة العربية الإسلامية وإحلال الثقافة الفرنسية محلها.

فالنظام العدلي - مهما طال أمد تطبيقه، ومهما تفنن مبتكروه في وسائل تركيزه - قابل للتعديل والتغيير إذا بدل بنظام أكثر منه ضمانا للحقوق والعدالة والعوائد والتقاليد - مهما رغب أصحابها في الاحتفاظ بها، ومهما تشبث بها الذين يستغلونها لمصلحتهم الخاصة - قابلة للتبديل والتحويل، وخصوصا ما هو منها مخالف للشريعة الإسلامية ومخل بالكرامة الإنسانية، لا بد أن ينمحي ويندثر بعامل التطور الذي لا مناص منه طال الزمان أو قصر، ولكن أنى للمغرب باسترجاع وحدته القومية إذا استطاع المستعمرون أن يربوا أبناء القبائل الجبلية تربية مباينة في مشربها ووسائلها والغاية التي ترمي إليها، كتربية باقي النشء المغربي.

السياسة البربرية ترمي إلى هذه التفرقة الخطيرة وترمي من ورائها إلى

تثبيت الاستعمار بهذا القطر على أساس حفظ التوازن بين العناصر التي يسعى للتفرقة بينها، فالمصادرالرسمية والعلمية لا تجد حرجا في التصريح بوجوب محو الثقافة العربية الإسلامية من القبائل الجبلية وتعويضها بالثقافة الفرنسية، واستغلال ما يحدث عن ذلك من تفرقة في صفوف الأمة لمصلحة الاستعمار. إن ظهير *16* ماي *1930* لم ينص على مقاومة الثقافة القومية، بل كانت تلك المقاومة أساس السياسة البربرية منذ نشأتها، والكل يعلم أنها نشأت مع الحماية، وأن الماريشال اليوطي الذي أنشأها كان يكتب إلى ضباط الاستعلامات بيانات رسمية ـ نشر بعضها فيما بعد ـ يصدر فيها أوامره الصارمة بعدم استعمال اللغة العربية «لأنها وسيلة لنشر الإسلام». ولأنها يتعلمها الناس من القرآن، ولأن مصلحة فرنسا تقتضي تطوير البرابرة خارج دائرة الإسلام، وقد كان الماريشال ليوطي يرى من الواجب أن يترك البرابرة لهجاتهم المحلية ويعوضوها «رأسا» باللغة الفرنسية ويقترح لذلك وسائل، منها فتح مدارس تدرس فيها الفرنسية، واللهجات البربرية، ويحرم فيها حفظ القرآن، وتعليم اللغة العربية، ومنها تسجيل محاضر الجلسات الرسمية للمحاكم والجماعات وتسجيل الأحكام وتحرير العقود باللغة الفرنسية، عوض اللغة العربية التي كانت لغة المعاملات ولغة الدين والإدارة، في سائر الأرض المغربية سهولها وجبالها.

نعم ترى بعض الرجال المسؤولين من أنصارالسياسة البربرية يقولون : إن فرنسا لا تريد أن تعمل لانقراض اللغة البربرية بل هي تعمل لإبقاء ما كان على ما كان، وكما أنها تعلم في المدارس المحدثة بالمدن اللغتين العربية والفرنسية، فهي تعلم في مدارس الجبل البربرية والفرنسية، ولكن نسأل هؤلاء من المموهين فنقول : ومتى وجدت لغة تعرف باللغة البربرية؟ أتقصدون باللغة البربرية اللهجات العديدة التي تختلف من قبيلة إلى قبيلة، لدرجة يصعب معها التفاهم بين القبائل الجبلية نفسها؟

وهل الاحتفاظ للغة العربية لغة الدين والملك بالمكانة التي كانت لها قبل الحماية، يمنع القبائل الجبلية من الاحتفاظ بلهجاتم الجبلية؟

ليس موضوع النزاع هو الاحتفاظ باللهجات البربرية ولكنه ينحصر في مقاومة العربية، والاستعاضة عنها بالفرنسية، ولنا في برامج التعليم التي اتبعتها الحماية منذ تأسيسها أعظم دليل على ذلك.

وحتى لا يسمنا الخصوم بالمبالغة سنعمد إلى الأطروحة الشيقة التي

كتبها الأستاذ دومونبين سنة 1928 عن التعليم بالمغرب، وعمل الحماية فيه، فنأخذ منها فقرات تتعلق بموضوع بحثنا.

تكلم المؤلف عن برنامج التعليم من سنة 1912 إلى سنة 1920 : «إن ميزته هو الاضطرار لأكثرية من المعليمن الأهالي لا يحسنون التعليم ويخشى منهم نشر العربية والإسلام في مدارس البوادي. ثم نخلص لبرنامج سنة 1920 (صحيفة 120) ذاكرا أن إدارة العلوم والمعارف (أبعدت من كل المدارس البدوية تعليم اللغة العربية الفصحى وحظت على عدم إنشاء كتاتيب قرآنية بجانب المدارس المؤسسة في نواحي لا توجد بها كتاتيب) ويقول المؤلف : إن هذه التعليمات لم تتبع، ولو اتبعت، ما أنشئت كتاتيب في كل مدارس البادية تقريبا، إذ لا يكاد يوجد مركز من المراكز البربرية، يخلو من طالب، أو شيخ طريقة، يعلم الصبيان كلام الله».

«وفي سنة 1923 حددت السياسة البربرية فيما يرجع للتعليم، وأهم ما ترمي إليه هو فصل القبائل البربرية عن القبائل العربية «بكيفية مصطنعة» ومن جملة ما نص عليه الكاتب أن هذه المدارس البربرية معدة لتقاوم هجمات العربية والإسلام».

وهي توجه النشء اتجاها فرنسيا، فيجب إقصاء تعليم اللغة العربية والقرآن منها بتاتا، كما يجب أن لا يكون للمدرس أدنى اتصال بالطالب (الذي يعلم القرآن)، إن كان هنالك طالب، ومن جهة أخرى، فتعليم اللغة الفرنسية هو أهم مواد الدراسة، إذ يجب أن تصير اللغة الفرنسية لغة الإدارة والاقتصاد بالقبائل البربرية،كما يجب أن تصير أداة التمدين الحديث».

هذا ما يريد الاستعمار أن يناله من المدارس البربرية والأستاذ دومونبين يعرفنا في نفس كتابه (صحيفة 119) بالضرورة التي دفعت الحماية لاتخاذ هذه السياسة فيقول : «إن من الخطر علينا أن تتكون جبهة موحدة من الأهالي يتكلمون بلغة واحدة وتكون لهم تشكيلات واحدة، بل يجب أن نتخذ لأنفسنا العبارة التي كان يستعملها المخزن في القديم وهي «فرق تسد»، إذ وجود العنصرالبربري مفيد لحفظ التوازن مع العنصر العربي، ويمكن لنا أن نستغله إزاء المخزن».

فهل نحتاج بعد هذه النقول إلى زيادة إيضاح؟ وهل نحتاج إلى تبرير موقفنا حين نشك في نيات أنصار السياسة البربرية، ونعتبر إلغاءها مسألة موت أو حياة للبلاد؟

جريدة الأطلس - 1937.